من معارك الأدب السياسى

للدكتور عمر حليق

فى الأوساط الاشتراكية فى بريطانيا هذه الأيام جدل حول تفسير المبادئ الاشتراكية التى يؤمن بها حزب العمال — أحد الحزبين الرئيسين اللذين يتنازعان الحكم هناك

ويتخذ هذا الجدل معركة فكرية سلاحها الكراريس والنشرات والمقالات التى ينشرها كهنة الحركة الاشتراكية فى مجلاتهم الأسبوعية وحلقاتهم الأدبية التى يكثر انتشارها فى مراكز النقابات العمالية وأوساط الثقافة والفن فى الجامعات ومعاهد العلم

والمحرك الأكبر لهذه المعركة الفكرية هو المستر « أورين بيفان » — قطب من أقطاب حزب العمال نبت فى « العشش » المزرية البائسة التى تتاخم مناجم الفحم فى مقاطعة ويلز ولم يتلق من التعليم المدرسى إلا مبادئه . وثقافته عصامية تتلمذ فيها على الكتب والبحوث التى توفرها للطبقات الفقيرة فى بريطانيا المكتبات الحكومية الدوارة بحيث تقدم الغذاء العقلى للباحثين عن الحقيقة من الذين حالت ظروف المعاش بينهم وبين التتلمذ على الأساتذة فى معاهد العلم الرسمية . واستطاع المستر بيفان بفضل عصاميته الثقافية أن يرتفع من أقبية المناجم ومجتمعها المليل إلى مركز مرموق فى الحركة العمالية ، ومن ثم إلى قبة البرلمان؛ فالوزارة التى استقال منها فى العام المنصرم (قبل أن تفشل وزارة العمال فى الانتخابات الأخيرة) إعلانا عن سخطه لسوء اجتهاد زملائه من أقطاب الوزارة فى تفسير وتطبيق المبادئ الاشتراكية التى يدين بها الحزب

فحزب العمال البريطانى يستند فى قوته السياسية إلى عنصرين أحدهما : نقابات العمال التى تضم ملايين الناخبين من الأيدى العاملة ، وثانيهما نفر من المثقفين لا ينتمون فى محتدهم ونشأتهم إلى طبقة العمال ؛ وإنما اعتنقوا المبادئ الاشتراكية وانضموا إلى الحزب الذى يمثلها فى الحياة السياسية البريطانية ، وهؤلاء المثقفون يشكلون الدماغ المفكر للحزب . وهم يفهمون الاشتراكية كما وضع أساسها المفكرون الإنجليز ولا يعترفون بأن تعاليم ماركس ولينين وستالين التى تطبق فى روسيا اليوم هى السبيل الوحيد لتحقيق العدالة الاجتماعية فى بريطانيا ، وهذا لا يعنى أن الاشتراكية البريطانية خالية تماما من نظريات ماركس ؛ وإنما تحرص الرؤوس المفكرة وراء الحركة الاشتراكية فى بريطانيا أن تطبعها بطابع بريطانى فتتعمد أن تعزز نظرياتها بالبحوث الاقتصادية والاجتماعية والفلسفة السياسية التى سجلها المصلحون البريطانيون فى معالجاتهم لمساوئ الثورة الصناعية التى قلبت أوضاع المجتمع البريطانى فى القرن الثانى عشر

وينفرد « أورين بيفان » من بين أقطاب حزب العمال بأنه يجمع فى شخصيته مزيجا من كلا العنصرين . فقد وفر له عمله فى المناجم وتنظيم النقابات خبرة ثمينة وفهما صادقا لعقلية العامل البريطانى وحاجاته ومطالبه وحقوقه وواجباته . وكذلك استطاع المستر بيفان بفضل دراسته العميقة للاشتراكية البريطانية أن يجارى أقرانه من المثقفين من قادة حزب العمال الذين انضموا إلى الحزب برغم أن تربيتهم الجامعية التقليدية ونشأتهم فى أوساط مترفة محافظة كانت تؤهلهم إلى غير ما اختاروه من معتقدات اشتراكية ونشاط سياسى يمنى بمشاكل الطبقات الفقيرة التى كانت تفصلهم عنها ستائر كثيفة من الفوارق الاجتماعية والفكرية والمصالح الذاتية

والمشهور من الأدب السياسى فى بريطانيا أنه شغوف بنشر البحوث القصيرة الموجزة لمشكلة من مشاكل الساعة فى كتيب أو كراس أو مقال مدروس يظهر فى نوع خاص من المجلات البريطانية تحرص على أن تعالج السياسة ودقائقها معالجتها لفنون الأدب وألوان الثقافة العامة

والجدل الذى يدور هذه الأيام بين أنصار المستر بيفان ومعارضيه فى حزب العمال يتبع هذا التقليد البريطانى فى الأدب السياسى . فقد أصدر الطرفان فى الأشهر الأخيرة عددا من الكراريس والنشرات والمقالات تشرح وجهات نظرها على

أرفع ما يكون الأدب السياسي من نقاوة وعمق وتدقيق

فللستر بيفان مجاله الخاص في مجلة «تريبون» التي تحررها زوجته، وكل مقال أو كتيب ينشره هذا القطب السياسي يولد صدى أبعد وأوسع من العدد المحدود من مبيع المجلة أو الكتيب، امتد هذا الصدى في الآونة الأخيرة إلى درجة أزعجت الستر أتلي رئيس حزب العمال وزملاءه من أعمدة الحركة الاشتراكية البريطانية الذين اتخذ الستر بيفان سياستهم وآراءهم هدفا لنقده العنيف. ولم يجد الستر أتلي وجماعته بدا من أن يواجهوا تحدي الستر بيفان بنفس السلاح فتألفت من بينهم جماعة من الكتاب السياسيين أطلقت على نفسها اسم «الاتحاد الاشتراكي» واختارت البرفسور (آلان فلاندرز) أستاذ العلاقات الصناعية في جامعة أكسفورد رئيسا لها، وأخذت تكيل للستر بيفان الصاع بالصاع. فلما أصدر الستر بيفان كتابه الهام «بدلا من الخوف» [1] أصدرت الجماعة كتيبا بعنوان «مقالات فابيانية (اشتراكية) جديدة» [2] ولما رد عليها بيفان بمقال بليغ في مجلة «تريبون» أسرعت الجماعة فأجابت بكراس عنوانه «الاشتراكية: بيان جديد عن مبادئها» [3] وضع مقدمته الستر أتلي رئيس حزب العمال

وقد خلق هذا الحوار لونا من المتعة العقلية للذين يتابعون الأدب السياسي في بريطانيا — وهو لون من الأدب يحرص على بلاغة التعبير ومتانة الأسلوب وروعة الفن حرصه على عمق الدراسة وقوة المنطق وسلامة التفكير

والحوار بين قادة حزب العمال ورؤوسه المفكرة لا يقتصر على السياسة الداخلية للحزب وعلى علاقة بريطانيا الخارجية مع خصومها وحلفائها، وإنما يمس نواحي هامة من تيارات الفكر السياسي في حاضر الثقافة البريطانية؛ وهي ثقافة محافظة تمر الآن في مرحلة هامة تواجه فيها لونا من التطرف الفكري يعبر عنه الستر بيفان ومشايعوه في الرأي رغم جماعة لها وزنها في الحياة السياسية وفي أوساط الأدب والفن كذلك

فهذا الرجل وآراؤه عنوان للتطور الفكري في عقل ثوروي يحرص على تغيير الأوضاع على أسس اشتراكية بأن العنف والثورة المسلحة هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق العدالة الاجتماعية

والواقع أن الحركة الاشتراكية في بريطانيا كما يؤمن بها ويعمل على تطبيق مبادئها حزب العمال تختلف في هذه الناحية اختلافا جوهريا عن الحركات الاشتراكية الأوربية، وهي حتما تختلف عن اشتراكية السوفييت والدول الشيوعية الأخرى

وهذا الطابع السلمي للاشتراكية البريطانية هو الذي مكنها من أن تكسب ثقة خصومها المحافظين الذين دعوها إلى الاشتراك في الحكم إبان الحرب العالمية الأخيرة، وأن تستخلص منهم الحكم في سنوات ما بعد الحرب، وأن تشاطرهم السلطة التشريعية في البرلمان البريطاني حتى بعد أن أفلتت من يد العمال السلطة التنفيذية (الوزارة) إثر انتخابات العام المنصرم. وقد استطاع العمال الاشتراكيون في بريطانيا أن يحققوا هذا النصر المتتابع دون أن يلجأوا إلى إراقة نقطة واحدة من الدم أو أن يعصفوا بالحياة الدستورية أو يعبثوا بالكيان الاقتصادي بالإضرابات وما إليها من الوسائل التي لجأت إليها الحركات الانقلابية الأخرى اشتراكية أم شيوعية في أوربا الغربية الشرقية

واليوم يجد نفر من أصحاب الرأي المسموع في حزب العمال البريطاني برأسهم بيفان أن هذه الثورة السلمية التي حقق بها الاشتراكيون في بريطانيا خلال السنوات التي سيطروا فيها على الحكم جزءاً من المبادئ التي وضعوها تأسيسا للعدالة الاجتماعية. ولكن هذه الثورة السلمية لم تمكنهم من أن يحققوا الجزء الأهم من هذه المبادئ. فكيف السبيل إذن لتحقيقها الآن وقد فقدوا السلطة التنفيذية بعد أن فاز تشرتشل وحزبه المحافظ بمدة الحكم؟

وأمعن الستر بيفان النظر في سبب هذه المبادئ فوجد أن أقرانه في قيادة حزب العمال عندما كان لهم الحكم قد تساهلوا في اتباع الخطوط الجوهرية لهذه المبادئ، فساوموا المحافظين على بعضها. فبدلا من أن يصروا على توجيه الجزء الأكبر من ميزانية الدولة لتنفيذ مشاريع الضمان الاجتماعي ورفع مستوى الطبقات

كتاب

1) In place of fear

2) New fabian essays

3) Socialism a new statement of principles

العاملة ومكافحة البطالة وإعادة التبادل التجارى مع روسيا والصين الشيوعية ، وعوضا عن أن يمنوا و تأميم الصناعات والمنشآت الاقتصادية الكبرى ويقيدوا أرباح أصحاب الدخل الواسع ، وبدلا من أن يربطوا علاقاتهم مع مناطق النفوذ البريطانى على أساس سياسى واقتصادى جديد يضمن لبريطانيا صلات اقتصادية وأسواقا تجارية سليمة، بدلا من أن يعمل المستر أتلى وجماعته على تبديد هذه الخطوط الجوهرية امتثلوا لضغط المحافظين ومن ورائه إغراء أمريكا المادى وضغطها السياسى والاقتصادى فتأثرت من جراء ذلك مشاريع الضمان الاجتماعى وبقى مستوى الطبقات العاملة على حالته الكئيبة . ولم يحرص البريطانيون (عمالا ومحافظين) على صيانة تجارتهم الخارجية إزاء المنافسة الأمريكية والألمانية واليابانية ففقدت بريطانيا كثيرا من أسواقها التقليدية . وانتقد المستر بيفان تقاعد بريطانيا عن تعزيز صداقتها مع الصين الشيوعية لتحتفظ بالسوق الصينية الكبيرة كمصرف للمنتجات البريطانية وإعادة التبادل التجارى بين بريطانيا ومنطقة النفوذ السوفيتى فى أوروبا الشرقية . ووجد المستر بيفان أن هذا التصور فى مصادقة الروس وحلفائهم ، وأن انسياق بريطانيا فى الامتثال لسياسة أمريكا العدائية لروسيا السوفيتية وما خلقه من سباق التسلح . كل هذا أثر فى وضعية بريطانيا الاقتصادية والسياسية فكانت النتيجة أن ناصرت بريطانيا الفرنسيين فى حروبهم الاستعمارية فى الهند الصينية وفى المغرب العربى ، وعجزت المصانع البريطانية عن أن تجد لمنتجاتها أسواقا فعمت البطالة فى مصانع النسيج فى لانكشير ، وعجزت المنشآت الصناعية البريطانية الأخرى عن تزويد زبائنها فى آسيا وإفريقيا وأوربا اللاتينيه بما يحتاجون إليه من آلات ومعدات بعد أن استأثرت برامج التسلح البريطانى بالجزء الأكبر من الحديد والمواد الخام .

وبسبب هذا التطور فى وضعية بريطانيا الاقتصادية وبفضل امتثالها لإغراء أمريكا المادى وضغطها السياسى فشلت الاشتراكية البريطانية فى تنفيذ إصلاحاتها الاجتماعية وفشلت بريطانيا فى إنقاذ نفسها من شبح الإفلاس الاقتصادى والتدهور السياسى الذى أخذت تنحدر إليه فى الآونة الأخيرة .

ولم يكتف المستر بيفان بالنقد وإنما رسم لحزبه والمجتمع البريطانى الأكبر برامج جديدة للخروج من هذه الورطة؛ فأشار فى كتابه «بدلا من الخوف» أن لا نتفاق مع أمريكا فى إصرارها وعزمها على القضاء على النظام الشيوعى فى روسيا والصين ؛ وتهيئة الحرب اللازمة المعركة الفاصلة

وبيفان لا يؤمن بالشيوعية السوفيتية ولا يرغب فى أن يجعل السياسة البريطانية مرتبطة بها . ولكنه مع ذلك يعتقد بأن فى العالم مجالا واسعا لجميع الأنظمة السياسية. فهو لا يرى بأسا من أن تعيش روسيا بنظامها الشيوعى المطلق فى نفس العالم الذى تعيش فيه أمريكا بنظامها الرأسمالى وبريطانيا بنظامها الاشتراكى وإسكندنافيا بحركاتها التعاونية . وهو يعتقد أن روسيا لا ترغب فى حرب جديدة ويستشهد على هذا بأن إنتاج روسيا من الحديد (ومقداره السنوى ٣٠ ألف طن) لا يشجعها على الدخول فى حرب مع أمريكا وحلفائها ومعدل إنتاجهم من الحديد والمواد اللازمة لجهاز الحرب يفوق الإنتاج الروسى بعدة أضعاف .

وينصح بيفان قومه بأنهم إذا استقلوا فى سياستهم الخارجية عن أمريكا وضمنوا عدم اعتداء الروس على المصالح البريطانية استطاعوا أن يتفادوا برامج التسلح ونفقاته الهائلة ، وأن يحولوا الإنتاج إلى صناعة سلمية تستعيد الأسواق التقليدية فى الشرق على شرط أن تتبع بريطانيا أسلوبا جديدا فى علاقاتها مع الشعوب التى لم يكتمل نموها الاقتصادى فى آسيا وإفريقيا . وهذا الأسلوب يستند إلى مبدإ المعونة الفنية لتستطيع هذه الشعوب أن ترفع مستوى المعيشة بين سكانها ، وبذلك تزداد حاجاتها من المنتجات الصناعية التى تصدرها بريطانيا ، وهذا أسلوب باشرت حكومة العمال تنفيذه عندما كانت فى الحكم فيما يعرف الآن بمشروع كولومبو الذى منحت فيه بريطانيا الدول الآسيوية المرتبطة بنظام الكومنولث بضعة ملايين من الدولارات لتنمية المرافق الاقتصادية وزيادة قوة الشراء والتعامل التجارى بين هذه الدول وبين بريطانيا .

ويكرر المستر بيفان فى كتابه الأخير هذه ، فى قوة وعنف ويتهم كبار رجال الصناعة وأصحاب المصالح ، حزب المحافظين بأنهم العقبة الكبرى فى وجه هذه ، التى يقترحها المستر بيفان . ولذلك فهو حاقد على أقر حزب

العمال أمثال المستر أتلى لتعاونهم مع المحافظين فى السياسة الخارجية. وفى مقالات بيفان وكتاباته نوع من الثورة ضد هذه الطبقة الصناعية التى يعتقد بأنها توجه سياسة بريطانيا لتتماشى مع السياسة الأمريكية. فهو لذلك يدعو إلى وضع تشريعات قاسية تحصر أرباح هذه الطبقة وتنتزع عن طريق التأميم المنشآت الصناعية والمالية الهامة التى يملكونها

وهذه الثورة على طبقة الصناعيين هى من أبرز النقاط التى يحاولها خصوم بيفان فى الرأى من أقرانه الاشتراكيين. ففى الكراس الأخير الذى أصدره الاتحاد الاشتراكى بعنوان « الاشتراكية : بيان جديد عن مبادئها » هجوم على دعوة المستر بيفان لنصر الطبقة المترفة. ويقول واضعو هذا البحث بأن مبادىء الاشتراكية البريطانية لاتؤمن بصراع الطبقات وإنما تستند إلى أسس أخلاقية تضم الحرية الفردية فوق المساواة الاقتصادية. ويشير الكراس كذلك إلى أن بريطانيا فى ظل وزارة العمال فى الحكم وفى البرلمان قد خطت خطوات هامة فى التسوية بين طبقات المجتمع عن طريق التشريعات التى وضعتها حكومة العمال فى مجال الضرائب على الدخل والتركات وفى سياسة التأميم التى نفذت حكومة العمال جزءا منها.

ويؤكد واضعو هذا الكراس بأن سياسة التأميم لاتعنى أن على الدولة أن تملك كل مصدر من مصادر النشاط الاقتصادى فى البلد؛ فالاشتراكية يجب أن لاتفسر على أنها سياسة تأميم فحسب، فقد أثبتت تجارب وزارة العدل بأن سياسة التأميم لا تحل بصورة أتوماتيكية المشاكل الاقتصادية والآفات الاجتماعية. فإذا استبدلت بصاحب المصنع الدولة كمالك لمنشأة اقتصادية فإن العامل فى هذه المنشأة سيظل يعتقد بأنه مهضوم الحقوق. ويجب أن لايفهم العامل أن سياسة التأميم تجعله مالكا للمصنع الذى يعمل فيه وإلا توالت فوضى اقتصادية واجتماعية لا يقوى على ضبطها إلا نظام إدارى قاس يعصف بالحرية الشخصية ويضع العامل والمجتمع فى ظل حكم ديكتاتورى لا ترضى عنه فلسفة الاشتراكية البريطانية ومفهومها للعدالة الاجتماعية والمساواة الاقتصادية

واستنادا إلى مثل هذا المنطق يبرر خصوم المستر بيفان فى الرأى تساهل حزب العمال فى سياسة التأميم وقبولها لبرامج التسلح وتحالفها مع الأمريكان فى السياسة الخارجية. فهم لا يوافقون المستر بيفان على أن روسيا السوفيتيه راقية فى السلم، رأن قصور إنتاجها من الحديد والمواد الخام عن اللحاق بإنتاج حلفاء الغرب رادع لها من الدخول فى المعركة القاصلة. فقد دخل هتلر الحرب العالمية الأخيرة وكان إنتاج بلاده من مواد الاستعداد الحربى يقل عن إنتاج خصومه عدة مرات. ومع ذلك استطاع هتلر أن يبنى آلة حرب جبارة شغلت العالم بأسره عدة سنوات طوال

والطريف فى معركة « الكراريس » هذه أنها سجل لاتجاهين هامين فى التفكير السياسى المعاصر فى ريطانيا وفى كثير من بقاع العالم الأخرى؛ فقد رسخ فى عقلية المجتمع الإنسانى الأكبر أن كيانه الاقتصادى والسياسى والاجتماعى أصبح فى حاجة ماسة إلى أسس جديدة من العدالة الاجتماعية والمساواة فى الفرص الاقتصادية.. والدعوة لهذا الإصلاح تجد صداها البعيد فى أوساط الاشتراكيين فى أوروبا الغربية وفى رجال « العهد الجديد » من أتباع الحزب الديمقراطى فى أمريكا؛ صدى يتجاوز الانفعال العاطفى ويتخذ البرامج الحزبية والسياسية العملية وسيلة لتنفيذ هذه الأسس الجديدة.

ففريق من هؤلاء الاشتراكيين لايزال يؤمن بأن السياسة التطبيقية للمبادئ الاشتراكية يجب أن تتقيد بحرفية النظريات حتى لو استلزم ذلك تقييد الحرية الخاصة لطبقة معينة من المجتمع لا تنوى لهذه المبادئ خيرا. والمستر بيفان أميل إلى هذا الفريق منه إلى الفريق الآخر الذى ينظر إلى الأمور نظرة واقعية فلا تعترف بأن أسباب الطمأنينة المادية للفرد كما تسعى لتحقيقها النظم الشيوعية المطلقة ستوفر لهذا الفرد سعادة فى المجتمع. فهناك عناصر أخرى فى السلوك الانسانى لا يمكن أن تصبح ضحية للطمأنينة المادية. من هذه العناصر حرية الفرد وماتوفره